



أثر خلفاء الحقبة الأولى من الخلافة العباسية في شعر الزهد

محمد محمد عيسى فيض*

الملخص:

إن حركة الزهد هذه ليست في حاجة إلى تعقيد في تفسيرها، إنما هي من نوع تفاوت الناس في قبول تعاليم السماء، فلا نستطيع أن نقول إن قبول الناس للوعظ والنصح في ذم الدنيا يكن على وتيرة واحدة، وإنما يتفاوت ذلك من نفس إلى أخرى، هؤلاء الزهاد سمعوا الوعظ فاتعظوا، في حين لم يتعظ آخرون، وهذا طبيعي من الجائز أن يحدث سواء وجدت في مجتمع صالح أو مجتمع مملوء بالفاسدين.

فلم يكن الوجه اللاهني هو المنفرد بالساحة أيام العباسيين؛ فقد كان المجتمع في الحقبة الأولى من الخلافة العباسية يحوي أيضاً كثيراً من التقاة والزهاد والصالحين، والوعاظ والفقهاء الذين لا يخشون في الله لومة لائم. إن ميل الخلفاء إلى شعر الزهد واستماعهم الكثير له، قد ترك لهم حساً زهدياً، ويجوز أن نعتبر بعض خلفاء الحقبة الأولى من الخلافة العباسية مشاركين للشعراء الزاهدين في زهدهم، ألهمت ألسنتهم بشعر الزهد، فتعمق في نفوس بعضهم، وخرج فناً وأدباً راقياً.

* رئيس قسم الشؤون الفنية - كلية السياحة والضيافة - جامعة مصراتة

مقدمة:

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف المرسلين، سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين،
وبعد..

إن نزعة الزهد سواء كانت في شعر أو بدونه كانت رد فعل للهو والمجون والزندقة، ووجود فوارق اجتماعية
بين طبقات المجتمع.

أما شعر الزهد وسبب إثباته هنا فإن الباحث صادف في بعض خلفاء بني العباس ميلاً إلى شعر الزهد،
وترحيباً به، بل وقولاً فيه، وتشجيعاً له.

وإذا كانت طبيعة الزاهد نفسها قد لا تهتم بالمدح أو بالمدح، فإن الباحث وجد في بعض خلفاء الحقبة
الأولى من الخلافة العباسية طلباً مباشراً لشعر الزهد. ومن الطبيعي أن يكون ذلك دافعاً إلى تطوره وإلى ازدهاره،
فإن شعر الزهد الذي طلبه الخلفاء لا بد له من أثر بصورة أو بأخرى.

لمعرفة ما إذا كان للخلفاء دور أو أثر في شعر الزهد، سيحاول البحث هنا تناول هذا الموضوع بالبحث آملاً
بذلك أن ألقى ضوءاً ولو قليلاً على أثر خلفاء الحقبة الأولى من الخلافة العباسية في شعر الزهد، وقد حاولت
أن أجعل هذا البحث خلاصة واختصاراً لما قرأته في الكثير من المصادر عن أثر خلفاء الحقبة الأولى من الخلافة
العباسية في شعر الزهد، واستدعت طبيعة هذا البحث أن يكون في مبحثين وبعدهما خاتمة، يتناول المبحث
الأول أحوال المجتمع في الحقبة الأولى من الخلافة العباسية، ويتناول المبحث الثاني أثر خلفاء الحقبة الأولى من
الخلافة العباسية في شعر الزهد، وتتناول الخاتمة النتائج التي توصل لها البحث.

والله أسأل أن يكون هذا البحث مصدر نفع وعون للدارسين، وأن يوفقنا جميعاً لما فيه الخير والنجاح، فإنه
نعم المولى ونعم النصير.



المبحث الأول:

أحوال المجتمع في الحقبة الأولى من الخلافة العباسية:

لم تكن بصمة الفرس في حكومة بني العباس في حملها العبء الأكبر في تحويل دفة الحكم من بيت عربي مسلم إلى بيت عربي آخر، بل تعداه إلى الأثر الكبير على العرب عامة، والطبقة الحاكمة خاصة في مجتمعهم، وفي المجتمع الإسلامي عامة من حولهم، عادات جديدة، ونظم منقولة، أشياء تتفق مع الدين، ومع روحه، وأخرى غريبة على الدين والأعراف العربية التي كانت سائدة أيام بني أمية وقبلهم، يقول يوسف خليف "لم يكن الانقلاب العباسي - في حقيقة أمره - ثورة سياسية أدالت لبني العباس من بني أمية فحسب، وإنما كانت ثورة اجتماعية غيرت من صورة المجتمع العربي التي كان عليها أيام بني أمية إلى مجتمع إسلامي جديد، تعيش فيه أمة إسلامية، تضم إلى جانب العنصر العربي عناصر فارسية ارتفعت في منزلتها الاجتماعية حتى تفوقت على العرب، واستطاعت أن تفرض نفوذها عليه، وأن يكون لها تأثيرها الفعال في تطويره والتأثير فيه من شتى جوانبه، وطبعه بطابع فارسي جديد لم يعرفه المجتمع العربي أيام الدولة الأموية العربية، وقد لاحظ الجاحظ هذه الظاهرة فقال عبارته المشهورة التي يصف فيها الدولة الأموية "بأنها عربية أعرابية، والدولة العباسية بأنها فارسية أعجمية"⁽¹⁾.

فقد عاشت قصور بني العباس، وعاش وزراؤهم، وحواشيهم، وشعراؤهم وكبار رجال الدولة والعلماء والمغنون حياة مملوءة بالترف الزائد، الذي يخرج في كثير من الأحيان عن التصور والخيال، "فالقصور الواسعة المترفة ذات الشرفات المتعددة والحمامات المزودة بالمحاري تحت الأرض والبساتين والنافورات والبرك، والزجاج الملون ومصارع الأبواب المصنوعة من الأخشاب الراقية والمزينة بالنقوش، والمبطنة بالأغذية، والمرصعة بالفضة والذهب، كذلك الجدران المزودة بالرسوم، والمعلق عليها الستائر، والأسقف المذهبة، والبسط الإيرانية الغالية والتحف النادرة، والأواني المرصعة بالجواهر. كل هذا كان في حياة الخلفاء والوزراء، وشيء قريب منه في حياة الطبقة المتوسطة من التجار وغيرهم. وكان الشعراء ينعمون بكل هذا؛ فدور الخلفاء والوزراء وعلية القوم مفتوحة لهم"⁽²⁾ مما جعلهم ينفقون بغير حساب، يبعثون المال يمينا ويسرة دون مبالاة، فقد جاء هذا المال دون تعب، وأنفق بغير اكتراث،

(1) خليف - يوسف، تاريخ الشعر في العصر العباسي، دار الثقافة، القاهرة، 1981، ص 17.

(2) أبو الأنوار - محمد، الشعر العباسي تطوره وقيمه الفنية، مكتبة الشباب، 1983، ص 70.

فقد كانت موارد الدولة كثيرة، وكانت الأموال الكثيرة تحت تصرف فئة قليلة من الناس، هم أفراد البيت الحاكم وحاشيتهم، وما هكذا يجب أن يكون الخلفاء المسلمون، "يقال إن دنانير جارية البرامكة كانت تتحلى بعقد من الجواهر بلغت قيمته ثلاثين ألف دينار، كان الرشيد قد أهدها إليها"⁽¹⁾. ويروي ابن تغري بردي أن المأمون أمر يوماً لكل من ابنه العباس وأخيه المعتصم وعبد الله بن طاهر بخمسمائة ألف دينار، وقد كان ابن تغري بردي محقاً حين عقب على ذلك: لعل الدينار يوم ذاك لم يكن مثل دينار اليوم⁽²⁾، وإذا أردنا أمثلة لهذا السرف المبالغ، فإن معظم كتب التاريخ تروي لنا الكثير من أخبار هذا السرف، كالطبري، والمسعودي، والجهشياري وغيرهم، من ذلك ما ذكره محمد بن جرير الطبري في ذكر الخبر عن بناء المأمون بيوران بنت الحسن بن سهل " فلما جلس المأمون معها نثرت عليها جدتها ألف درة كانت في صينية ذهب، فأمر المأمون أن تجمع، وسألها عن عدد ذلك الدر كم هو؟ فقالت: ألف حبة"⁽³⁾، "وذكر عن ابن الحسن بن سهل، قال: كان أهلنا يتحدثون أن الحسن بن سهل كتب رقاعاً فيها أسماء ضياعه، ونثرها على القواد وعلى بني هاشم؛ فممن وقعت في يده رقعة منها فيها اسم ضيعة بعث فتسلمها"⁽⁴⁾، "وأوقد تلك الليلة شمعة عنبر؛ فيها أربعون منا في تور من ذهب. فأنكر المأمون ذلك عليهم، وقال: هذا سرف"⁽⁵⁾ وقد كان لهذا الشراء الفاحش أثره في شيوع المجون والعبث بين أفراد البيت الحاكم في ذلك العصر، فقد تحولت الخمر التي تستوجب الحد في شرع الله إلى أمر عادي، يقدم عليه بعض الحكام والوزراء وعلية القوم⁽⁶⁾، دون زاجر من خلق أو دين، ولم يكن جد خلفاء عظام مثل الرشيد والمهادي ليغفر لهم هذا الخرق الواضح لدين الله وأوامره ونواهيها إذا ثبت أن شيئاً من هذه الخمر التي دخلت قصورهم كان فيها شيء محرم، وإن كان من أهم أسباب انتشارها إفتاء بعض فقهاء العراق بتحليل بعض الأنبذة كنبذ التمر والزبيب المطبوخ أدنى طبخ، ونبذ العسل والبُر والتين"⁽⁷⁾ إلا أن ذلك لا يمكن أن يصلح مسوغاً لمن يخلف رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أن يقترب من هذا الخطر الداهم. فقد ذكروا أن المهادي شرب الخمر، وتبعه الرشيد ومن جاء بعده من الخلفاء، إلا أن الأمين كان أشد الخلفاء ولعاً بالمجون عامة، والخمر منه خاصة، فقد كان لأبي نواس الشاعر الماجن، الذي كانت الخمر همه صباح مساء، فقد

(1) ضيف - شوقي، العصر العباسي الأول، دار المعارف، ط 14، القاهرة، 1966م، ص 50.

(2) بردي - ابن تغري، النجوم الزاهرة في أخبار مصر والقاهرة، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والنشر، مصر، د.ت، 205/2.

(3) الطبري - أبو جعفر محمد بن جرير، تاريخ الرسل والملوك، تحقيق، محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، 1966، 607/8.

(4) المصدر نفسه، 608/8.

(5) المصدر نفسه، 608/8.

(6) ذكر هذا الأمر كثير من المؤرخين وإن كان في الأمر خلاف في النوع الذي تناوله الحكام هل هو من النوع المحرم أم لا.

(7) ضيف - شوقي، العصر العباسي الأول، ص 65.



"حدث ابن المعتز أنه أصطبح يوماً مع أبي نواس مع ندمائه فأتى بالشراب كأنه الزعفران، أصفى من وصال المعشوق وأطيب ريحاً من نسيم المغنيات خلف الستائر بمزاهرها. فشربوا معه من صدر نهارهم إلى آخره في مسكرة "أحاديث" كقطع الرياض، ونشيد كالدرد المفصل بالعقيان، وسماع يحيي النفوس ويزيد في الأعمار. فلما كان آخر النهار دعا بعشرة آلاف دينار في صوان فأمر فنثرت عليهم فانتهبوها والشراب - بعد - يدور عليهم بالكبير والصغير من الصرف والممزوج حتى نام واستيقظ في السحر طلب إلى أبي نواس أن ينشطه إلى متابعة السكر ببعض الأبيات، فأنشده:

نَبِّهِ نَدِيمَكَ قَدْ نَعَسَ	***	يَسْتَقِيكَ كَأْساً فِي الْغَلَسِ
صِرْفاً كَأَنَّ شُعَاعَهَا	***	فِي كَفِّ شَارِبِهَا قَبَسِ
تَدْرُ الْفَتَى وَكَأَنَّهَا	***	بِلِسَانِهِ مِنْهَا خَرَسِ
يُدْعَى فَيَرْفَعُ رَأْسَهُ	***	فَإِذَا اسْتَقَلَّ بِهِ نَكْسِ

فهش الأمين ونشط، ودعا بالشراب يصطبح به لليوم التالي، وينعم بنشوته، غير مفكر في وقار خلافة ولا دين⁽¹⁾.

ولقد امتلأ المجتمع بالمستهترين وشاربي الخمر، في قصور عليية القوم من خلفاء - بعضهم - في كثير من الأحيان - أو وزراء أو قواد أو شعراء أو أغنياء - "وكان أبو نواس وكان معه الرقاشي والعباس بن الأحنف ومسلم بن الوليد والحسين الخليل وغيرهم من الشعراء، وكان هؤلاء الناس لا يستترون في معصية، ولا يكفون عن فاحشة، وكانوا ينتقلون بمعاصيهم وآثامهم بين بغداد والكرخ والبصرة والكوفة والرقعة، وكانوا يأخذون اللذة حيث وجدوها، فإذا أخذوها لم يتركوها حتى تتركهم، وكانوا لا يخشون في ذلك خلقاً ولا ديناً"⁽²⁾ فقد عم المجتمع شغف بشرب الخمر والتهالك عليها والبحث عنها وعن مجالسها، وارتداد أماكن وجودها، ولم يكن من أهم أسباب ذلك إلا شيوع الترف الزائد، وتقليد حضارة فارس، التي مكنت للبيت الحاكم، ونقلت إليه حضارتها وترفها ومجونها. ومن آثار الثراء الفاحش أيضاً شاع الغناء والرقص، وما أحاط به من مجون واستهتار،

(1) المصدر نفسه، ص 66.

(2) حسين - طه، حديث الأربعاء، دار المعارف، ط 4، القاهرة، د.ت، 30/2.

وكثرت الجوارى والمغنيات الماجنات في قصور الخلفاء والوزراء والأغنياء وعلية القوم، فقد "كان في دار الرشيد من الجوارى والحظايا وخدمهن وخدم زوجته وأخواته أربعة آلاف جارية"⁽¹⁾ وقد ارتفعت قيمة الجوارى المغنيات، فأصبح يكال لهن المال كيلاً، فيقال إن صالح بن علي عم المنصور اشترى سعدة بتسعين ألف درهم، وغيرها بلغ ثمنها مائة ألف، واشترى المهدي بصبص بسبعة عشر ألف دينار، واشترى الرشيد ذات الخال بسبعين ألف درهم، واشترى علي بن هشام أحد قواد المأمون متيم بعشرين ألف درهم، ولم تكن أسعار هؤلاء الجوارى لترتفع إلى هذه الدرجة إلا بسبب ما أجادته كل منهن من فن وغناء، أو رقص وعزف، إلى غير ذلك من أسباب اللهو والقصف والمتعة، "وقد بلغ من دل الجوارى وحرثتهن أنهن كن يعلقن الصلبان في مجالس لهوهن وسمرهن في مجلس الحكام"⁽²⁾.

ولم تكن هذه الأموال الباهظة لتدفع في جارية إلا بسبب الترف الزائد، الذي وصل على حد الخيال عند رؤوس هذه الطبقة ومن عاش في ظلها، وبذلك شاع الغناء والرقص والطرب واللهو بدرجة كبيرة في هذا العصر "ولكن الأمر تطور إلى ما هو أشد خطراً، إذ عم المحجون كثيراً من طبقات المجتمع وفي مقدمتهم الشعراء، وذلك أن الفرس أشاعوا بين الناس عوائدهم في ذلك، وأصبحت الخمر والغزل بالمذكر ومنادمة الجوارى مسائل قد عم بها البلاء، وأصبحت الحانات أماكن لهُو لا حدود لما يرتكب فيها من آثام"⁽³⁾.

وإذا كان انتشار الغناء والتنافس على اقتناء المجيدات من المغنيات، وشرائهن بأهبط الأثمان، أقول إذا كان هذا أمراً معروفاً بين مؤرخي الأدب، والباحثين في هذا العصر، فإنه مما لا شك فيه عندهم أيضاً أن هؤلاء الجوارى لم يكن ذوات خلق ولا دين، ولم تكن إحداهن تنشغل بترغيب ولا ترهيب، فيما أن الحياة من حولها قد تحولت إلى صراع للحصول عليها بسبب فحشها، فلما لا تبالغ هي في هذا الفحش، علماً بأنها قد رضعت الجون منذ نعومة أظافرها، وهي لا تتلهف إلا إلى أن يحظى بها خليفة أو وزير، لذلك لم يزد هذا الشعور إلا مبالغة في الفحش ومنافسة في الإغراء، ولهناً في زيادة الفتنة والجمال الجسدي وغير الجسدي "وقد دفع هذا الفساد الخلقي الذي كان يعيشه القيان والجوارى في هذا العصر إلى انتشار الغزل المكشوف الذي لا تصان فيه كرامة المرأة والرجل جميعاً"⁽⁴⁾.

وإحفاقاً للحق، فلم يكن الوجه اللاهي هو المنفرد بالساحة أيام العباسيين؛ فقد كان المجتمع يحوي أيضاً

(1) الدمشقي - الإمام المحافظ أبو الفداء إسماعيل بن كثير، البداية والنهاية، حرج أحاديته، محمد بيومي، عبد الله المشاوي، محمد رضوان مهنا، مكتبة الإيمان، المنصورة، د.ت، 581/10.

(2) أمين - أحمد، ضحى الإسلام، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مهرجان القراءة للجميع، مكتبة الأسرة، 2002م، 105/1.

(3) أبو الأنوار - محمد، الشعر العباسي تطوره وقيمه الفنية، ص 73.

(4) ضيف - شوقي، العصر العباسي الأول، ص 72.



كثيراً من التقاة والزهاد والصالحين، والوعاظ والفقهاء الذين لا يخشون في الله لومة لائم، فقد قال "ابن السماك" للرشيد يوماً "يا أمير المؤمنين: إنك تموت وحدك، وتدخل القبر وحدك، وتبعث منه وحدك، فاحذر المقام بين يدي الله عز وجل، والوقوف بين الجنة والنار، حين يؤخذ بالكظم وتنزل القدم ويقع الندم، فلا تقبل توبة، ولا عشرة تقال، ولا يقبل فداء بمال. فجعل الرشيد يبكي حتى علا صوته فقال يحيى بن خالد له: يا ابن السماك! لقد شققت على أمير المؤمنين الليلة. فقام فخرج من عنده وهو يبكي"⁽¹⁾.

وروي عن "عمرو بن عبید" القدری أنه دخل على المنصور، فأكرمه وعظمه وقربه وسأله عن أهله وعياله، ثم قال له: عظمي. فقرأ سورة الفجر إلى: "إِنَّ رَبَّكَ لِبِالْمِرْصَادِ" الفجر: 14- فبكى المنصور بكاءً شديداً حتى كأنه لم يسمع بهذه الآيات قبل ذلك، ثم قال له زديني. فقال: إن الله قد أعطاك الدنيا بأسرها، فاشتر نفسك ببعضها، وإن هذا الأمر كان لمن قبلك ثم صار إليك ثم هو صائر لمن بعدك، وأذكر ليلة تسفر عن يوم القيامة.

فبكى المنصور أشد من بكائه الأول حتى اختلفت أجفانه، فقال له "سليمان بن مجالد"⁽²⁾: رفقاً بأمرير المؤمنين. فقال عمرو: وماذا على أمير المؤمنين أن يبكي من خشية الله عز وجل. ثم أمر له المنصور بعشرة آلاف درهم فقال: لا حاجة لي فيها. فقال له المنصور: والله لتأخذنها. فقال: والله لا آخذها، فقال له المهدي وهو جالس في سواده وسيفه إلى جانب أبيه: أيجلف أمير المؤمنين وتحلف أنت؟ فالتفت إلى المنصور فقال: ومن هذا؟ فقال هذا ابني محمد المهدي ولي العهد من بعدي. فقال عمرو: إنك سميت اسماً لم يستحقه لعمله، وألبسته لبوساً ما هو لبوس الأبرار ولقد مهدت له أمراً أمتع ما يكون به أشغل ما يكون عنه. ثم التفت إلى المهدي فقال: يا ابن أخي! إذا حلف أبوك وحلف عمك فلأن يحنث أبوك أيسر من أن يحنث عمك، لأن أباك أقدر على الكفارة من عمك"⁽³⁾.

(1) الدمشقي - الإمام الحافظ أبو الفداء إسماعيل بن كثير، البداية والنهاية، 578/10.

(2) سليمان بن مجالد بن أبي مجالد. من أهل الأردن، كان أخا أبي جعفر المنصور أمير المؤمنين من الرضاة، وكان معه بالحيمية من أرض الشام، فلما أفضت إليه الخلافة قربه وأدناه، وكان معه كالوزير، وقدم معه بغداد حين بناها وولاه الري وولي له الخزائن إلى حين وفاته. فلما توفي ولى المنصور ابن أخيه إبراهيم بن صالح ابن مجالد مكانه. انظر، الصفدي، صلاح الدين خليل بن ايبك، الواقي بالوفيات، تحقيق واعتناء، الأرنؤوط أحمد، ومصطفى تركي، دار إحياء التراث العربي، ط 1، بيروت، 2000م، 257/15.

(3) المصدر السابق، 482/10.

وقد ظهرت في العصر ظاهرتا الشعوبية والزندقة، أما الشعوبية فقد كانت من الفرس الذين تنقصهم حكام بني أمية، وجعلوهم طبقة تالية للعنصر العربي، وحقروا من شأنهم وأزروا عليهم، فما كان منهم إلا أن ردوا الصاع صاعين للعرب وللمسلمين، فعلى حين لم تمكنهم الظروف من الانتقام أيام بني أمية، وما هي إلا سنوات حتى ركن الموالي - خاصة الفرس - صورة، وكانت لهم كلمة مسموعة عند الخلفاء والحكام أنفسهم، وأخذ فريق منهم يفخر على العرب بحضارة فارس، وما كان للساسانيين من أمر ونهي، ومن هنا نمت حركة الشعوبية، وأخذ الفرس يتنقصون العرب ويقارنون بين حضارتهم الفارسية الماضية وبين ما كان فيه العرب من بدائية وقسوة وهمجية، وساعدهم على النيل من العرب الأهاجي والنقائص التي ذاعت في الشعر العربي أيام بني أمية وقبله وبعده "وقد يسر لهم العرب سبيل النيل منهم، بتلك الأهاجي القبلية العنيفة التي دارت رحاها بين القبائل العربية، وبتلك النقائص التي استعر لهيها في العصر الأموي. فاستغل الشعوبيون هذه المادة أيما استغلال، بل وأضافوا إليها وضمخوها"⁽¹⁾ "واختلفت طوائف الشعوبيين، من سياسيين يريدون أن يستأثروا دون العرب بالسلطان، إلى قوميين ما فتئوا ينتظرون الفرصة المواتية لينقضوا على الإسلام الذي ذهب بحضارتهم، إلى ماجنين يهرهم ما تنيحه تلك الحضارات الغارية من ألوان الفجور والفسق"⁽²⁾. ولم يكن الشعوبيون من الفرس وحدهم، بل كان منهم "فرس، ومنهم نبط، ومنهم قبط، ومنهم أندلسيون، وقد صبغت شعوبية كل صنف من هؤلاء صبغة خاصة"⁽³⁾. وإذا كان هؤلاء قد انتقصوا العرب، وحطوا من شأنهم، وألفوا في مثالبهم، إلا أن منهم من أفاد الأدب واللغة، وبشار وأبي عبيدة وغيرهم.

أما الزندقة فقد شغلت الخلفاء، يقول ابن المرتضى في أماليه "وكما أنه كان في الجاهلية وقبل الإسلام، وفي ابتدائه قوم يقولون بالدهر، وينفون الصانع، وآخرون مشركون يعبدون غير خالقهم، ويستنزلون الرزق من غير رازقهم أخبر الله عنهم في كتابه، وضرب لهم بالأمثال، وكرر عليهم البيانات والأعلام، فقد نشأ بعد هؤلاء جماعة ممن يتستر بإظهار الإسلام، ويحقن بإظهار شعاره والدخول في جملة أهله دمه وماله زنادقة ملحدون، وكفار مشركون"⁽⁴⁾، فأنشأ لها المهدي وظيفة خاصة جديدة سمي صاحبها "صاحب الزنادقة"، وما كان عليه إلا أن يتعقبهم، ويقضي عليهم، وقد تتبعهم الخلفاء بعد المهدي أيضاً، الهادي، والرشيد والمأمون والمعتصم، وقد راح فيها كثير من مشاهير الرجال أمثال بشار بن برد الشاعر، وصالح بن عبد القدوس، والأفشين قائد

(1) الموائى - محمد عبد العزيز، حركة التجديد في الشعر العباسي، مكتبة الشباب، 1991م، ص 37.

(2) المصدر السابق، ص 37.

(3) أمين - أحمد، ضحى الإسلام، 75/1.

(4) المرتضى - الشريف، أمالي المرتضى، تحقيق، محمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية، 1954م، 127/1.



المعتصم، وغيرهم. إلا أن الزندقة كانت تهمه جاهزة لمن يراد التخلص منهم، بحق أحياناً أو بغير حق أحياناً أخرى؛ فيتهم بها أبو العتاهية وحميد بن سعيد المعتزلي وغيرهما.

"ولم ينصب المهدي وخلفاؤه للزندقة حرب السيف وحدها، فقد نصبوا لها أيضاً حرب اللسان: لسان المتكلمين الذين مضوا يجادلونهم، ويضمونهم، وينقضون شبهاتهم بالبرهان القاطع والدليل الساطع"⁽¹⁾.

وإن كانت هذه الطرق في المواجهة، بالسيف والنطع تارة، واللسان والكلمة تارة أخرى، لم تقض عليهم قضاءً نهائياً، إلا أنها قللت من خطرهم، وحجمت طموحاتهم في النيل من الدين، والانتقاص من سموه وقديسيته، واللعب بشعائره، أو بالاستهتار به، هذا بالنسبة للزندقة، أما الشعوبية "فينبغي أن نعرف أن الروح العربي - على الرغم من هذه الشعوبية - ظلت شائخة مسيطرة، يسندها الخلفاء وزعماء العرب من الولاة والقواد، ومستشارو الدولة، كما يسندها الفقهاء والمحدثون وعلماء اللغة ورواة الشعر"⁽²⁾ فإذا كانت الشعوبية قد تغلغت في المجتمع العباسي، ووصلت إلى أخطر الكراسي في حكومة بني العباس، فكان من غير العرب الوزراء وكبار الكتاب، بل وأمهات معظم الخلفاء وكبار الشعراء وقادة الجيوش وغيرهم من أكابر القوم، لذا لم يكن الشعوبيون يستترون، أو يخفون بغضهم للعرب، قد يكون السبب في ذلك أن الحكام لم يريدوا أن يكرروا مأساة غير العرب من المسلمين كما حدث لهم أيام بني أمية، أو لأن خطرهم كان بعيداً عن العقيدة الإسلامية، بخلاف الزندقة التي وقف لها الخلفاء، وقتلوا، واستصفوا الأموال، وشردوا الزنادقة، وما كان ذلك إلا ذباً عن الدين، وحماية له من العبث واللمز، ومن الاستخفاف واللهو، فبعض الدين ترتقي الدولة، وتستمر لها مكانتها وعظمتها.

وأحسب أن الزندقة لم تكن ضرباً من ضروب الظرف كما يرى حسن إبراهيم حسن⁽³⁾، إذ لو كانت كذلك، لانعدمت خطورتها، ولما اهتم بها الخلفاء كل هذا الاهتمام، فقد حادت الزندقة بأصحابها عن جادة الصواب، فجاهروا بمعاداتهم للدين الإسلامي. فقد روي عن "مطيع بن إياس" أنه كان يُرمى بالزندقة، وأنه لما

(1) ضيف - شوقي، العصر العباسي الأول، ص 81.

(2) المصدر السابق، ص 78.

(3) حسن - حسن إبراهيم، تاريخ الإسلام، ط 6، القاهرة، 1962م، 118/2.

حضرته الوفاة أحاط به أهل بيته، وأقبلوا يقولون: قل لا إله إلا الله، فكان أن قال⁽¹⁾:

لَهْفَ نَفْسِي عَلَى الزَّمَانِ وَفِي أَيِّ *** يِ زَمَانٍ دَهْتَنِي الأَزْمَانُ
حِينَ جَاءَ الرَّيْبُ وَاسْتَقْبَلَ الصَّيْبُ *** فُ وَطَابَ الطَّلَاءُ وَالرَّيْحَانُ

وإذا جاز لنا أن نعتبر هذا الخروج الواضح عن أوامر الدين ونواحيه نوعاً من الظرف والتثقيف كما يرى حسن إبراهيم، فإن الأمر أيضاً بالغ الخطورة، إذ كيف يتسنى لحاكم مسلم أن يسمح بالاستخفاف بالدين والاستهتار بأحكامه وشرائعه. ثم كيف يكون طرفاً "بعد الجهر بالآراء المغايرة لحقيقة الدين، المصرحة بإنكار البعث والحساب"⁽²⁾ على أية حال، فإن الشعبية والزندقة كانتا حركتين بارزتين في المجتمع العباسي، كان لهما أكبر الأثر في جوانب عديدة، وكان وقوف الخلفاء العباسيين لهما ضرورياً. وفي الجهة المقابلة لجانب اللهو والمتعة والمجون، والانغماس في ملاذ الحياة وحلاوتها، ما بين تبذير مفرط للأموال، وسهر بين دنان الخمر ورقص الراقصات وغناء المغنيات، وبين القصور وما تحويه من زخارف وفرش تزيد عن الوصف، وبين منافسات الشعراء، والماجنين، واللاهين بكل أنواعهم، وبين الزنادقة، والشعوبيين؛ أقول: كان في الجهة الأخرى أناس باعوا أنفسهم وسخروها لطاعة الله، مؤثرين الفوز برضا ربهم، والتمتع بالآخرة في أعلى الجنان على ملاذ الدنيا وزخارفها، هؤلاء هم الزهاد، الذين عاشوا حياة تقشف، ورضا بالقليل، عيش على الكفاف" بل كان كثير منهم يعيش في البؤس والضحك والضييق وقلوبهم تنقطع حسرات على ما تحظى به الطبقة المترفة من أسباب النعيم. وكانوا ساخطين سخطاً شديداً على كل ما يرونه حولهم من جموع الأهواء والإمعان في المجون"⁽³⁾، ولم يكن هؤلاء الزهاد يبخشون في الله لومة لائم، فكانوا يقولون الحق أمام الخليفة نفسه، ويعظونه ويذكرونه بالله، فهذا عمرو بن عبيد يعظ المنصور ويرفض أعطيته وقسمه، وابن السماك يعظ الرشيد، وحقاً ما قاله أحمد أمين "وكما صورت حياة اللهو والمجون في كتاب الأغاني ودواوين الشعراء، صورت حياة الإيمان في تراجم العلماء أمثال طبقات ابن سعد، وطبقات المحدثين. فأنت إذا قرأت الأغاني ظننت أن الحياة كلها هو ومجون وإباحة، وإذا قرأت طبقات المحدثين والمتصوفة خلعت الحياة كانت كلها دين وورع وتقوى، وتنصف إن أنت اعتقدت أن الحياة كانت ذات صنوف وألوان، وأن المدينة العباسية كانت ككل الدنيا، مسجد وحانة، وقارئ وزامر، ومجتهد يرتقب الفجر، ومصطبح في الحدائق، وساهر في تهجد، وساهر في طرب وتخمّة من غنى، ومسكنة من إملاق.

(1) المرتضى - الشريف، أمالي المرتضى، 1/142.

(2) هاشم - علي محمد، الأندية الأدبية في العصر العباسي في العراق حتى نهاية القرن الثالث الهجري، دار الآفاق الجديدة، ط 1، بيروت، 1402هـ-1982م، ص 26.

(3) أمين - أحمد، ضحى الإسلام، 1/176.



وشك في دين، وإيمان في يقين"⁽¹⁾.

المبحث الثاني: أثر خلفاء الحقبة الأولى من الخلافة العباسية في شعر الزهد:

هذا الغرض ليس جديداً على هذا العصر، ولكنه غرض قديم، له جذور سبقت العصر العباسي بزمن طويل، وقد يكون من الطبيعي أن الزاهدين يناون عن بلاطات الخلفاء، ويتعدون عنهم، زاهدين في كل ما يحيط بهم من زخارف الدنيا، رافضين ما يعرض عليهم من متاعهم، رغبة منهم في نيل الجزء الأعظم في جنات النعيم، مطمئنين إلى هذا، كان خلفاء الحقبة الأولى من الخلافة العباسية يعرفون للفقهاء قدره وللعالم مكانته، "دخل هارون بن زياد - مؤدب الواثق - على الواثق فأكرمه وأظهر من بره ما شهر به، فقيل له: من هذا يا أمير المؤمنين الذي فعلت به ما فعلت؟ قال: هذا أول من فتق لساني بذكر الله وأدناي من رحمة الله عز وجل"⁽²⁾.

وبالرغم من جلاله ملكهم وقوة خلافتهم، فإنهم كانوا يتأثرون أشد التأثير بنصائح العلماء والزهاد عند سماعها، ولكنها النصيحة التي يتأكدون من إخلاص وورع قائلها، فقد روى "أن ابن السماك"⁽³⁾ دخل على هارون الرشيد يوماً، فاستسقى فأتى بكوز، فلما أخذه قال: على رسلك يا أمير المؤمنين، لو منعت هذه الشربة بكم كنت تشتريها؟ قال بنصف ملكي، قال: اشرب هناك الله تعالى، فلما شربها قال: أسألك لو منعت خروجها من بدنك بماذا كنت تشتري خروجها من بدنك؟ قال بجميع ملكي، قال: إن ملكاً قيمته شربة ما وبولة لجدير أن لا ينافس فيه، فبكى هارون بكاءً شديداً"⁽⁴⁾.

ولم يكن الخلفاء يكثر من مجالسة علماء الدين مجالسة عادية، بل كانوا يتواضعون لهم تواضعاً جمياً، فهذا

(1) المصدر نفسه، 160/1-161.

(2) ابن الجوزي، المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، طبعة دار الفكر العربي، د.ت، 354/6.

(3) ابن السماك: أحد الزهاد في عصر الرشيد، له مع الرشيد خاصة مواقف وعظية شهيرة انظر في ترجمته، محمد بن عثمان بن قايماز الذهبي أبو عبد الله، سير أعلام النبلاء، تحقيق، شعيب الأرنؤوط، ومحمد نعيم العرقسوسي، مؤسسة الرسالة، ط 9، بيروت، 1413هـ، 328/8. وأبو النعيم الأصبهاني، حلية الأولياء، دار الكتاب العربي، ط 4، بيروت، لبنان، 1405هـ، 209/8. وابن خلكان، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، 301/4.

(4) السيوطي - جلال الدين عبد الرحمن، تاريخ الخلفاء، تحقيق، جمال محمود مصطفى، دار الفجر للتراث، ط 1، القاهرة، 1420هـ-1999م، ص 234.

أبو معاوية الضرير، وكان من أعلم الناس يقول: "أكلت مع الرشيد يوماً فصب عليّ الماء رجل، فقال لي: يا أبا معاوية! أتدري من صب الماء على يديك؟ قلت: لا يا أمير المؤمنين. قال: أنا فقلت يا أمير المؤمنين، أنت تفعل هذا إجلالاً للعلم؟ قال: نعم"⁽¹⁾.

ولما "دخل المأمون بغداد وقرّ بهما قراره أمر أن يدخل عليه من الفقهاء، والمتكلمين وأهل العلم جماعة يختارهم لمجالسته ومحادثته، وكان يقعد في صدر نهاره على لبود في الشتاء وعلى حصر في الصيف ليس معهما شيء من سائر الفرش، ويقعد للمظالم في كل جمعة مرتين، لا يمتنع منه أحد، قال: واختير له من الفقهاء لمجالسته مائة رجل، فما زال يختارهم طبقة بعد طبقة حتى حصل منهم عشرة، وكان أحمد بن أبي دؤاد أحدهم وبشر المريسي⁽²⁾"⁽³⁾.

"وكان الرشيد يستدعي إليه "العمرى"⁽⁴⁾، و "الفضيل بن عياض"⁽⁵⁾ وابن السماك الكوفي و "أبا إسحاق الفزاري"⁽⁶⁾ وغيرهم من الأولياء فيحاورهم في مسائل الدين، ويكي من مواعظهم، ويقوم بواجب الاحترام لعلمهم"⁽⁷⁾.

فقد كانوا يأنسون بهم، ويرفعون من أقدارهم، ويتواضعون لهم، ولم يكن كل هذا الاهتمام إلا اعترافاً صريحاً

(1) محمد بن علي بن طباطبا العلوي المعروف بابن الطقطقي، الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية، دار صادر، بيروت، د.ت، ص 194.

(2) هو بشر بن غياث بن أبي كريمة المريسي المتكلم، شيخ المعتزلة، وأحد من أضل المأمون، كان ينظر أولاً في شيء من الفقه، ثم غلب عليه علم الكلام، وتنسب إليه المريسية من المرجئة توفي سنة 219هـ، انظر، الإمام الحافظ أبو الفداء إسماعيل بن كثير الدمشقي، البداية والنهاية، 643/10.

(3) ابن طيفور، أبو الفضل أحمد بن أبي طاهر، كتاب بغداد، تحقيق، محمد زاهد الكوثري، مكتبة، الخانجي، نشر، عزت العطار الحسيني، القاهرة، د.ت، ص 36.

(4) عبد الرحمن بن عبد الله العمرى: قاضي مصر في أيام هارون الرشيد، وهو أول من عمل "تابوت القضاة" في بيت المال كان يجعل فيه أموال اليتامى ومال من لا وارث له، قدم إلى مصر، قاضياً من قبل الرشيد، سنة 185هـ، واستمر تسع سنين وشهرين؛ وعزله الأمين "لما ولى الخلافة" وتوفي سنة 194هـ. ينظر: خير الدين الزركلي، الإعلام، دار العلم للملايين، مؤسسة ثقافية للتأليف والترجمة والنشر، ط 10، بيروت، 1992، 312/3.

(5) الفضيل بن عياض: أحد العباد الزهاد العلماء الأولياء، كان حسن التلاوة، وكثير الصلاة، له مواقف مع الرشيد، توفي سنة 187هـ انظر، الإمام الحافظ أبو الفداء إسماعيل بن كثير الدمشقي، البداية والنهاية، 559/10.

(6) إبراهيم بن محمد بن الحارث بن أسماء ابن خارجة الفزاري، أبو إسحاق، من كبار العلماء ولد في الكوفة وقدم دمشق وحدث بها، وكان من أصحاب الأوزاعي ومعاصريه ورحل إلى بغداد فأكرمه الرشيد وأجله ثم عاش مرابطاً بتغر المصيصة ومات بها سنة 188هـ. ينظر: خير الدين الزركلي، الإعلام، 59/1.

(7) المدور - جميل نخلة، حضارة الإسلام في دار السلام، المطبعة الأميرية، بولاق، 1937م، ص 114.



ومباشراً من الخلفاء بقيمة العلم والزهد والاحتفاء بأهله.

وقد اهتم الخلفاء بحديث رسول الله - صلى الله عليه وسلم -، يتدارسونه ويحفظونه، ومنهم من يروي الأحاديث عنه صلى الله عليه وسلم "أمر الرشيد أبا يوسف القاضي بأن يجمع له أصحاب الحديث؛ فيحدثوه وولده، فجمع له أهل الكوفة، إلا عبد الله بن إدريس⁽¹⁾، وعيسى بن يونس⁽²⁾ فإنهما أيا أن يحضرا، فركب إليهما الأمين والمأمون، فحدثهما عبد الله بن إدريس بمائة حديث، فلما فرغا قال له المأمون أتأذن لي أن أقرأها عليك من حفظي! فقال: إن شئت، فوضع الكتاب من يده وقرأها بأسانيدھا من حفظه. وحدثهما عيسى بن يونس، فأمر له المأمون بعشرة آلاف درهم، فقال: لا أقبل على حديث رسول الله - صلى الله عليه وسلم - شربة ماء"⁽³⁾.

"وذكر أحمد بن إسحاق الحلبي، قال: سمعت عمر بن سيار المنبجي يقول: سمعت مالك بن أنس يقول: وجه إليّ هارون الرشيد، فسألني أن أحدثه فقلت: يا أمير المؤمنين، إن العلم يؤتّى ولا يأتي، قال: فسار إلى منزلي فاستند معي إلى جدار، فقلت، يا أمير المؤمنين، إن من إجلال الله إجلال ذي الشيبة المسلم. قال فجلس بين يدي..."⁽⁴⁾

لذا هم ساخطون على الدنيا، ذامون لها - فهذا هو عمرو بن عبيد الزاهد يسأله المنصور، "يا أبا عثمان، هل لك من حاجة؟ قال: نعم، قال: وماهي؟ قال: لا تبعث إليّ حتى آتيك، ولا تعطني حتى أسألك. قال

(1) عبد الله بن إدريس بن يزيد بن عبد الرحمن: الإمام الحافظ المحدث، حدث عنه مالك وابن المبارك وأحمد بن حنبل ويحيى بن معين وخلق كثير، أقدمه الرشيد بغداد، ليوليه قضاء الكوفة فامتنع، توفي سنة 192هـ، انظر، محمد بن عثمان بن قايماز الذهبي أبو عبد الله، سير النبلاء، 42/9. والإمام الذهبي، المعين في طبقات المحدثين، تحقيق، همام عبد الرحيم سعيد، دار الفرقان، ط 1، عمان، الأردن، 1404هـ، 66/1.

(2) عيسى بن يونس بن إسحاق السبيعي الكوفي: أحد المحدثين، وثقة أحمد بن حنبل وأبو حاتم والنسائي وابن خراش وطائفة أخرى، عرض عليه جعفر البرمكي مائة ألف درهم فأبى أن يقبلها، وقال لا حاجة لي فيها، لا يتحدث أهل العلم أي أكلت للسنة ثمناً لا أخذ على الحديث شربة ماء ولا إهليلجة، توفي سنة 188هـ، انظر، محمد بن عثمان بن قايماز الذهبي أبو عبد الله، سير النبلاء، 489/8، وما بعدها. والإمام الذهبي، المعين في طبقات المحدثين، 76/1.

(3) العسكري - أبو هلال، الحث على طلب العلم والاجتهاد في جمعه، تحقيق، عبد المجيد دياب، مطبعة دار الفضيلة، ص 76.

(4) المصدر نفسه، ص 84.

المنصور: إذاً لا نلتقي، فقال عمرو: عن حاجتي سألتني. فودعه وانصرف⁽¹⁾.

فطبيعي أن يكون شعرهم متعلقاً بدم الدنيا، والرجوع إلى الله، والإنابة إليه، ولا علاقة لهم بالخلفاء، على هذه الصورة، أو من هذا المنظور، ولا علاقة للخلفاء بالشعراء الزهاد، أو شعرهم، سواء أكان جديداً أو قديماً.

وإذا نظرنا إلى نزعة الزهد نفسها - سواء كانت في شعر أو بدونه - فإن بعض الباحثين يرى أنها كانت رد فعل للهو والمجون والزندقة، ووجود فوارق اجتماعية بين طبقات المجتمع⁽²⁾.

ويرى الباحث أن ظهور مجموعة من الزهاد في مجتمع مسلم ليس له كبير الصلة بما حل بالمجتمع من فساد، أو من فروق طبقية بين أفراده، وإلا لوقفنا حائرين أمام زهد الصحابة، وتقواهم، وذمهم للدنيا، مع ما كان يمتلئ به مجتمعهم من تقوى وصلاح، أو لوقفنا حائرين أمام أصحاب الأموال الذين باعوا الدنيا بكل ما فيها وأقبلوا على الله طامعين في ثواب الآخرة، وهم كثير، ويرى الباحث أن حركة الزهد هذه ليست في حاجة على تعقيد في تفسيرها، وإنما هي من نوع تفاوت الناس في قبول تعاليم السماء، فلا نستطيع أن نقول أن قبول الناس للوعظ والنصح في ذم الدنيا يكن على وتيرة واحدة، وإنما يتفاوت ذلك من نفس إلى أخرى، هؤلاء الزهاد سمعوا الوعظ فاتعظوا، في حين لم يتعظ آخرون، وهذا طبيعي من الجائر أن يحدث سواء وجدت في مجتمع صالح أو مجتمع مملوء بالفاسدين.

أما شعر الزهد وسبب إثباته هنا فإن الباحث صادف في بعض خلفاء بني العباس ميلاً إلى شعر الزهد، وترحيباً به، بل وقولاً فيه، وتشجيعاً له.

وإذا كانت طبيعة الزاهد نفسها قد لا تهتم بالقدر أو بالمدح، فإن الباحث وجد في بعض الحكام طلباً مباشراً لشعر الزهد. ومن الطبيعي أن يكون ذلك دافعاً إلى تطوره وإلى ازدهاره، فإن البضاعة التي يطلبها الحكام لا بد لها من نهوض بصورة أو بأخرى.

كان أبو العتاهية ترك قول الشعر، فحكى فقال: "لما امتنعت من قول الشعر، أمر المهدي بحسبي في سجن الجرائم وهدده بالقتل أو قول الشعر فقال: بل أقول الشعر"⁽³⁾. وأبو العتاهية من رواد شعر الزهد، وإن كان الخبير لم يذكر نوع الشعر الذي طلبه الخليفة، إلا أن أخباراً أخرى كثيرة تؤكد رغبة الخلفاء في سماع شعره، حتى

(1) الدمشقي - الإمام الحافظ أبو الفداء إسماعيل بن كثير، البداية والنهاية، 482/10.

(2) ينظر، محمد مصطفى هدارة، اتجاهات الشعر العربي في القرن الثاني الهجري، دار العلوم العربية، ط1، بيروت، 1408هـ-1988م، ص 308.

(3) ابن خلكان - أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق، محمد محي الدين عبد الحميد، مكتبة النهضة المصرية، ط 1، 1948م، 203/1.



ولو كان قاسياً، فهذا هو الأصمعي يقول: "صنع الرشيد يوماً طعاماً كثيراً، وزخرف مجالسه، وأحضر أبا العتاهية فقال: صف لنا ما نحن فيه من نعيم هذه الدنيا فقال:

عَشْ ما بَدَا لَكَ سالماً *** في ظِلِّ شاهقَةِ القُصورِ

فقال: أحسنت ثم ماذا؟ فقال:

يَسَعِي إِلَيْكَ بما اشْتَهَيْتِ *** ت لَدَى الرِّواحِ وَفِي البُكورِ

فقال: أحسنت ثم ماذا؟ فقال:

فإِذا النُّفوسُ تَقَعَّقَعَتْ *** في ظِلِّ حَشْرَجَةِ الصُّدُورِ
فَهُنَاكَ تَعَلَّمْ مُوقِناً ***

فبكى الرشيد، وقال الفضل بن يحيى: بعث إليك أمير المؤمنين لتسره، فحزنته فقال: دعه فإنه رآنا في عمى فكره أن يزيدنا⁽¹⁾.

فلم يستجب الرشيد لتحريض الفضل ضد أبي العتاهية، وما ذلك إلا لسمو نفسه، ووجود بذرة الزهد داخله، وإن كانت زخارف الدنيا فيمن هو في موضعه ثقيلة، يصعب الانتباه إليها إلى غرورها إلا من رحم الله. والرشيد خاصة كان من أكثر الناس دموعاً، لخوفه الشديد من الله، وكان كثير النظر في شعر أبي العتاهية الزاهدة، قال الأصمعي: "دخلت يوماً على الرشيد وهو ينظر في كتاب، ودموعه تنحدر على خديه، فظللت قائماً حتى سكن، وحانت منه التفاتة، فقال: اجلس يا أصمعي، رأيت ما كان؟ قلت: نعم يا أمير المؤمنين، قال: أما والله لو كان لأمر الدنيا ما رأيت هذا، ورمى بقرطاس فإذا فيه شعر لأبي العتاهية:

هَلْ أَنْتَ مُعْتَبِرٌ بِمَنْ خَلَيْتَ *** مِنْهُ غَدَاةَ مَضَى دَسَاكِرُهُ
وَبِمَنْ أَدَّلَ المَوْتُ مَصْرَعَهُ *** فَتَبَّرَاتٌ مِنْهُ عَشَائِرُهُ
وَبِمَنْ خَلَّتْ مِنْهُ أَسْرَتُهُ *** وَبِمَنْ خَلَّتْ مِنْهُ مَنَابِرُهُ

(1) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، تحقيق، محمد يوسف الدقاق، دار الكتب العلمية، بيروت، د.ت، 359/5.

أَيْنَ الْمُلُوكِ وَأَيْنَ غَيْرُهُمْ *** صَارُوا مَصِيرًا أَنْتَ صَائِرُهُ
 يَا مُؤَثِّرَ الدُّنْيَا بِلَدَّتِهِ *** وَالْمُسْتَعِدَّ لِمَنْ يُفَاخِرُهُ
 نَلْ مَا بَدَالَكَ أَنْ تَنَالَ مِنَ الدُّ *** نِيَا فَإِنَّ الْمَوْتَ آخِرُهُ

قال الرشيد: كأبي والله أحاطب بذلك دون الناس⁽¹⁾.

ثم قال هو نفسه يقول لأبي العتاهية: عظمي بأبيات من الشعر، فيقول أبو العتاهية:

لَا تَأْمَنِ الْمَوْتَ فِي طَرْفٍ وَلَا نَفْسٍ *** وَلَوْ تَمَنَّعْتَ بِالْحُجَابِ وَالْحَرَسِ
 وَأَعْلَمَ بِأَنْ سِهَامَ الْمَوْتِ صَائِبَةً *** لِكُلِّ مُدَّرِعٍ مِنَّا وَمُتَرِّسٍ
 تَرْجُو النَّجَاةَ وَلَمْ تَسْلُكْ مَسَالِكَهَا *** إِنَّ السَّفِينَةَ لَا تَجْرِي عَلَى الْبَيْسِ⁽²⁾

وإذا كان الخلفاء كثيرون الاستماع إلى الزهد بهذه الطريقة؛ فإن هذا يفسر لنا المقطوعات الشعرية التي رواها المؤرخون للخلفاء، كالمنصور والمهدي والرشيد، وأمكنا أن ننسب كثيراً من المقطوعات غير المنسوبة لقائل إلى الخلفاء أنفسهم، فإنهم يمتلكون نفساً زاهدة، قد ترتكب الكثير من التصرفات غير المقبولة في كثير من الأحيان، ولكنها تنضح زهداً عند تذكر الموت والآخرة.

من ذلك ما يروى للمنصور أنه "لما دخل آخر منزل نزله من طريق مكة، نزل في صدر البيت الذي نزله فإذا فيه مكتوب:

أَبَا جَعْفَرَ حَانَتْ وَقَاتَلَتْكَ وَأَنْقَضَتْ *** سُنُوكَ، وَأَمْرُ اللَّهِ لِأَبَدٍ وَقِيعُ
 أَبَا جَعْفَرَ هَلْ كَاهِنٌ أَوْ مُنَجِّمٌ *** لَكَ الْيَوْمَ مِنْ حَرِّ الْمَنِيَّةِ مَانِعُ

قال: فدعا المتولي لإصلاح المنازل، فقال له: ألم أمرك ألا يدخل المنزل أحد من الدعار! قال: يا أمير المؤمنين والله ما دخلها أحد منذ فرغ منها، فقال: اقرأ ما في صدر البيت مكتوباً، قال: ما أرى شيئاً يا أمير المؤمنين، قال: فدعا برئيس الحجة فقال: اقرأ علي ما على صدر البيت مكتوباً، قال: ما أرى شيئاً، فأمر أن يكتب عنه⁽³⁾.

(1) المسعودي - أبو الحسن علي بن الحسين بن علي، مروج الذهب ومعادن الجوهر، تحقيق، محمد محي الدين عبد الحميد، مطبعة السعادة، مصر، ط 3، 1958م، 376/3.

(2) الدمشقي - الامام الحافظ أبو الفداء إسماعيل بن كثير، البداية والنهاية، 579/10.

(3) الطبري - أبو جعفر محمد بن جرير، تاريخ الرسل، والملوك، 109/8.



وقد روى مثل ذلك للمهدي والرشيدي، ويرى الباحث أن سبب ذلك ميل الخلفاء الدفين إلى الزهد وسماعهم الكثير له، وعدم تعصبهم عليه رغم قسوته في بعض الأحيان، وقد ترك ذلك لهم حساً زهدياً، خرج في هذه المقطوعات غير معروفة القائل.

ومن هذا يجوز أن نعتبر بعض الخلفاء مشاركين للشعراء الزاهدين في زهدهم، ألهمت ألسنتهم بالزهد، فتعمق في نفوس بعضهم، وخرج فناً وأدباً راقياً.

ولا داعي في هذا البحث لذكر الكثير من الشعراء الزهد في هذه الحقبة من الخلافة العباسية من أمثال أبي نواس وما دار حول زهدياته من جدل، أو محمود الوراق، أو محمد بن كناسة، أو عبد الله بن المبارك، فإننا لا ننتهج الحديث عن الغرض بصفة عامة، بل نبتغي التوصل إلى أثر أو صلة الخليفة بشعر الزهد إن كان إلى ذلك من سبيل.

الخاتمة

بعد هذا البحث في موضوع أثر خلفاء الحقبة الأولى من الخلافة العباسية في شعر الزهد، نصل إلى العديد من النتائج، والتي يمكن أن تتلخص في النقاط الآتية:

- فقد عم المجتمع العباسي في الحقبة الأولى شعف بشرب الخمر والتهالك عليها والبحث عنها وعن مجالسها، وارتياح أماكن وجودها، ولم يكن من أهم أسباب ذلك إلا شيوع الترف الزائد، وتقليد حضارة فارس، التي مكنت للبيت الحاكم، ونقلت إليه حضارتها وترفها ومجونها.
- فلم يكن الوجه اللاهبي هو المنفرد بالساحة أيام العباسيين؛ فقد كان المجتمع في الحقبة الأولى يجوي أيضاً كثيراً من التقاة والزهاد والصالحين، والوعاظ والفقهاء الذين لا يخشون في الله لومة لائم.
- إن المجتمع في الحقبة الأولى من الخلافة العباسية قد ضم بين دفتيه طربي النقيض في الجد والهزل، والغني والفقير، والنعمة والبؤس، مما أورث المجتمع كثيراً من المتناقضات في الخير والشر على حد سواء، فكانت ظاهرة المجون الزائد، وكانت حركة الزهد، وكانت ظاهرة الشعوبية وظاهرة الزندقة، كما كانت أئمة العلماء المسلمين في الفقه والحديث والسير، إن هذه الحقبة كانت حقبة المتناقضات في كل شيء.
- إن نزعة الزهد سواء كانت في شعر أو بدونه كانت رد فعل للهو والمجون والزندقة، ووجود فوارق اجتماعية بين طبقات المجتمع.
- قد كان بعض خلفاء بني العباس لهم ميلاً إلى شعر الزهد، وترحيباً به بل وقولاً فيه، وتشجيعاً له، ومن الطبيعي أن يكون ذلك دافعاً على تطوره وإلى ازدهاره، فإن شعر الزهد الذي يطلبه الخلفاء لا بد له من أثر بصورة أو بأخرى.
- إن ميل الخلفاء الدفين إلى شعر الزهد وسماعهم الكثير له، وعدم تعصبهم عليه رغم قسوته في بعض الأحيان، قد ترك ذلك لهم حساً زهدياً.
- يجوز أن نعتبر بعض خلفاء الحقبة الأولى من الخلافة العباسية مشاركين للشعراء الزاهدين في زهدهم، ألمحت ألسنتهم بشعر الزهد، فتعمق في نفوس بعضهم، وخرج فناً وأدباً راقياً.



المصادر والمراجع:

- 1- ابن الأثير، الكامل في التاريخ، تحقيق، محمد يوسف الدقاق، دار الكتب العلمية، بيروت، د.ت.
- ابن الجوزي، المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، دار الفكر العربي، د.ت.
- 2- ابن خلكان، أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق، محمد محي الدين عبد الحميد، مكتبة النهضة المصرية، ط 1، 1948م.
- 3- أبو الأنوار، محمد، الشعر العباسي تطوره وقيمه الفنية، مكتبة الشباب، 1983م.
- 4- الأصبهاني، أبو النعيم، حلية الأولياء، دار الكتاب العربي، ط 4، بيروت لبنان، 1405هـ.
- 5- الإمام الذهبي، المعين في طبقات المحدثين، تحقيق، همام عبد الرحيم سعيد، دار الفرقان، ط 1، عمان، الأردن، 1404هـ.
- 6- أمين، أحمد، ضحى الإسلام، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مهرجان القراءة للجميع، مكتبة الأسرة، 2002م.
- 7- بردي، ابن تغري، النجوم الزاهرة في أخبار مصر والقاهرة، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والنشر، مصر، د.ت.
- 8- حسن، حسن إبراهيم، تاريخ الإسلام، ط 6، القاهرة، 1962م.
- 9- حسين، طه، حديث الأربعاء، دار المعارف، ط 4، القاهرة، د.ت.
- 10- خليف، يوسف، تاريخ الشعر في العصر العباسي، دار الثقافة، القاهرة، 1981م.
- 11- الدمشقي، الإمام الحافظ أبو الفداء إسماعيل بن كثير، البداية والنهاية، خرج أحاديثه، محمد بيومي، عبد الله المنشاوي، محمد رضوان مهنا، مكتبة الإيمان، المنصورة، د.ت.
- 12- الزركلي، خير الدين، الاعلام، دار العلم للملايين، مؤسسة ثقافية للتأليف والترجمة والنشر، ط 10، بيروت، 1992م.

- 13- السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن، تاريخ الخلفاء، تحقيق، جمال محمود مصطفى، دار الفجر التراث، ط 1، القاهرة، 1420هـ-1999م.
- 14- الصفدي، صلاح الدين خليل بن ابيك، الوافي بالوفيات، تحقيق واعتناء، الأرنؤوط أحمد، ومصطفى تركي، دار إحياء التراث العربي، ط 1، بيروت، 2000م، 257/15.
- 15- ضيف، شوقي، العصر العباسي الأول، دار المعارف، ط 14، القاهرة، 1966م.
- 16- الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير، تاريخ الرسل والملوك، تحقيق، محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، 1966م.
- 17- العسكري، أبو هلال، الحث على طلب العلم والاجتهاد في جمعه، تحقيق، عبد المجيد دياب، مطبعة دار الفضيلة، د.ت.
- 18- محمد بن عثمان بن قايماز الذهبي أبو عبد الله، سير أعلام النبلاء، تحقيق، شعيب الأرنؤوط، ومحمد نعيم العرقسوسي، مؤسسة الرسالة، ط 9، بيروت، 1413هـ.
- 19- محمد بن علي بن طباطبا العلوي المعروف بابن الطقطقي، الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية، دار صاد، بيروت، د.ت.
- 20- المدور، جميل نخلة، حضارة الإسلام في دار السلام، المطبعة الأميرية، بولاق، 1937م.
- 21- المرتضى، الشريف، أمالي المرتضى، تحقيق، محمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية، 1954م.
- 22- المسعودي، أبو الحسن علي بن الحسين بن علي، مروج الذهب ومعادن الجوهر، تحقيق، محمد محي الدين عبد الحميد، مطبعة السعادة، ط 3، مصر، 1958م.
- 23- هاشم، علي محمد، الأندية الأدبية في العصر العباسي في العراق حتى نهاية القرن الثالث الهجري، دار الأفاق الجديدة، ط 1، بيروت، 1402هـ-1982م.
- 24- هدارة، محمد مصطفى، اتجاهات الشعر العربي في القرن الثاني الهجري، دار العلوم العربية، ط 1، بيروت، 1408هـ-1988م.



The impact of the Caliphs the first era of
the Abbasid Caliphate in the poetry of asceticism

Mohammed Mohammed Issa Faid

Abstract

This ascetic movement does not need to be complicated in its interpretation. Rather, it is the type of people's disparity in accepting the teachings of Heaven. We cannot say that people accepting preaching and advising in defamation of this world takes place uniformly, but it varies from one soul to another. Those ascetics heard the preaching and preached, while others did not, and this is normal and may happen whether it is found in a good society or a society full of corrupt people.

The forgetful face was not the only one in the square in the days of the Abbasids. The society in the first era of the Abbasid Caliphate also contained many pious, ascetic and righteous people, preachers and jurists who did not fear in God any blame.

The tendency of the Caliphs to the poetry of asceticism and their listening to a lot of it, left them with an ascetic sense, and it is permissible to consider some of the Caliphs of the first era of the Abbasid Caliphate as participants of ascetic poets in their asceticism and speak constantly of ascetic poetry in which delved into souls of some of them, and came out art and fine literature.